﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

[آل عمران: 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حذَّرَ اللّٰه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عبادَه المؤمنينَ من أنْ يُطيعوا طائفةً من أهلِ الكتابِ، حتَّى لا يَرُدُّوهم إلى الكُفرِ بعدَ الإيمان؛ جاءَ بيانُ اللّٰهِ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ ليبيِّن أنَّه لا يُمكنُ للمؤمنين أنْ يعُودوا للكُفْرِ، وَوَحْيُ اللّٰهِ بالقرآنِ يَنزِلُ على رسولِه ﷺ الَّذي هو فيهم يعلِّمُهم ويُربِّيهم، وأنَّ السَّبيل إلى الحفاظِ على الإيمانِ هو الاعتصامُ باللّٰهِ، فهو الهدايةُ الحقُّ إلى الصِّراطِ الحقِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَكْفُرُونَ﴾: "الكُفْرُ: سَتْرُ الشَّيء، وَوُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لسَتْرِه الأشْخاص، والزُّرَّاعُ؛ لِسَتْرِهمُ البِذْرَ في الأرض، وليس ذلكَ باسْمٍ لهما، وأعْظمُ الكُفْرِ: جُحودُ الوحدانيَّةِ أو الشَّريعةِ أو النُّبوَّة"[1].

وهو المرادُ هنا في الآيةِ، فهو سَتْرُ الإيمانِ الَّذي هو فِطْرةُ اللّٰهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وتغطيتُه بالكُفْر.

2) ﴿يَعْتَصِم﴾: "عَصَمَ: العَيْنُ والصَّادُ والميمُ: أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمة، والمعنَى في ذلكَ كُلِّه معنًى واحدٌ.

ومن ذلكَ العِصْمةُ: أنْ يَعْصِمَ اللّٰه تعالى عَبْدَه من سُوْءٍ يَقعُ فيه، واعْتصمَ العَبدُ باللّٰهِ تعالى: إذا امْتَنَع.

واسْتعصَمَ: الْتجأ، وتقولُ العربُ: أعْصمتُ فُلانًا، أي: هَيَّأتُ له شيئًا يَعْتصِمُ بما نالَتْهُ يَدُه، أي: يَلتَجِئُ، ويتمسَّكُ به"[2].

(1) الرَّاغب، المفردات: (كفر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).

وإيرادُ هذا الفعلِ في الآيةِ في موقعِ فعل الشَّرط يعني: أنَّ من يتمسَّكْ، ويلازمْ دينَ اللّه، ويمتنعْ به عن غيرِه من الأديانِ والأباطيل البشريَّة؛ فقد هُدِيَ حقًّا إلى صراطِ اللّهِ المستقيم.

3) ﴿هُدِيَ﴾: هَدَيَ: الهاءُ والدَّالُ والحَرْف المُعتلُّ، أصْلان: أحدُهما: التَّقدُّمُ للإرْشاد، والآخَرُ: بَعْثَةٌ لطفٍ، والمرادُ به: الهَدِيَّةُ.

والَّذي يَعْنينا في هذا المقامِ الأصلُ الأوَّلُ، وهو قولُهم: هَدَيتُه الطَّريق هِدايَةً، أي: تقدَّمتُه لأُرشِدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلكَ هادٍ.

ويَتفرَّعُ من هذا المعنى: الهُدَى: وهو خِلافُ الضَّلالَة، تقولُ: هديتُه هدًى، وهو المعنَى المرادُ في سياقِ الآية الكريمة[1].

4) ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: "صَرَطَ: الصَّادُ والرَّاءُ والطَّاءُ، وهو من بابِ الإبدالِ (سَرَطَ): وهو الطَّريق"[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يَستبعدُ بيانُ اللّه تعالى عن المؤمنينَ الكُفْر، وآياتُ اللّهِ تَنْزِلُ على رسولِه ﷺ ليلًا ونهارًا، وهو ﷺ لا يَألُو جهدًا في تلاوتِها عليهم وإبْلاغِهم إيَّاها وبَيانِها لهم، ومع هذا فالاعْتصامُ باللّهِ والتَّوكُّلُ عليه، هو العُمدةُ في الهدايةِ إلى الطَّريقِ السَّديد الَّذي لا تيهَ فيه ولا اعْوِجاج[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

استحالةُ عَوْد الصّحابة إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله تعالى منه

الاسْتفهامُ، والجملةُ الحاليَّةُ، وأثرُهما في تَجليةِ المعنَى:

قولُه تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الواو هنا يمكن أن تكون عاطفة من عطف القصَّة على القصَّة؛ لأنَّ الآيات تتحدَّث عن أهل الكتاب وما يتعلَّق بهم من أحكام، وتحذِّر المؤمنين من مسايرتهم والتَّعامل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرط).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/340.

معهم، ويمكن أن تكون استئنافيَّة؛ لأنَّها شرعت بأحكام جديدة، فضلًا عن احتمالها أن تكون واوًا حاليَّة على معنى: إن تطيعوهم؛ يردُّوكم كافرين، والحال أنَّه: كيف تفعلون ذلك، وأنتم تتلى عليكم آياته؟ والاستفهام إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مُستَعمَلٌ في إنكارِ الوقوع أي: الاسْتبعادُ لِكيفيَّة كُفرِهم نَفْيًا له.

ويحملُ توجيهُ الإنكارِ والاسْتبعادِ مع الفعلِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ إلى كيفيَّة الكُفرِ من المبالغَةِ ما ليسَ في توجيهِه إلى نَفْسِه، بأنْ يُقال: أَتَكفُرونَ؟ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ وجودُه على حالٍ من الأحْوال، فإذا أَنكرَ، ونَفَى جميعَ أحوالِ وجودِه؛ فقدِ انْتفَى وجودُه بالكُليَّةِ على الطَّريق البُرهانيِّ[1].

التّعبير بالمضارع لإحضار صورة الكفر الشّنيعة

والتَّعبير بالفعليَّة في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ دلَّ على استحضار هذه الصُّورة البشعة من جهة، ودلَّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ لحالة الكفر فيهم من جهة أُخرى.

تلاوة القرآن مانعةٌ من الكفر مُثبّتةٌ للإيمان

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواوُ هنا: حاليَّة، والجملةُ بعدَها وقعتْ حالًا من ضميرِ المُخاطَبين في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، مُؤكِّدةً للإنكارِ والاسْتبعاد؛ لأنَّ كُلًّا من تلاوةِ آياتِ الله وإقامةِ الرَّسولِ ﷺ فيهم وازعٌ لهم عن الكُفْر، وأيُّ وازعٍ، فالآيات الَّتي تُتْلَى هي القرآنُ وهداياتُه، وهذه التِّلاوةُ صيغتْ بالفعلِ المبنيِّ للمجهولِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ المرادَ فعلُ التِّلاوةِ وأثرُها على أصحابها، وليس مَنْ قامَ بها.

وجود رسول الله ﷺ في الأمّة أمانٌ لها

وجملةُ ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ الَّتي أعطتْ في الحرف (في) معنَى الظَّرفيَّة المكانيَّة الحقيقيَّة لإقامةِ رسولِ الله ﷺ بين أظْهُرِهم، وهي مَنْقبَةٌ عظيمةٌ، ومِنَّةٌ جَليلةٌ، ومع تلكَ الآياتِ وهذه الإقامةِ لشخصِ الرَّسولِ ﷺ بينَهم كيف يُتَصوَّرُ أن يَتسَلَّلَ الكفرُ إلى تلكَ القُلوبِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/524.

المؤمنة الطَّاهرة الزَّكيَّة الَّتي زكَّاها اللهُ تعالى بقوله: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: 29].

ولذلكَ أتى بيانُ اللهِ بالضَّمير المنْفصل ﴿وَأَنتُمۡ﴾ مخاطبًا الصَّحابةَ ﷺ لأنَّهم هُمُ المَعنِيُّون، وأكَّدهُ بقولِه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وفي الإعادةِ إفادَة، وخاصَّةً في هذا المقام، وهذه كُلُّها من الشُّؤونِ الدَّاعيةِ إلى الإيمان، الرَّادعةِ عن الكُفْر.

موقع جملة ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ وبلاغة القصر في التَّقديم:

الإيمانُ برسول الله والعيش في كنفه ومع سنّته أمانٌ وحصنٌ من التّردّي في هاوية الكفر

قولُه تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفةٌ عليها داخلةٌ في حُكْمِها، وعَدَمُ إسْنادِ التِّلاوةِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ للإيْذانِ باسْتقلالِ كُلٍّ منهُما في الباب[1].

وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ في قولِه: ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ إفادةُ بلاغَةِ القصْرِ الظَّرفيَّة، أي: فيكم وليس في غيركم.

أفادَ السِّياقُ ضرورةَ الاعتصامِ بدينِ اللهِ تعالى، لتحقيقِ الاستقامةِ على طريقِ الهداية

وفي الآيةِ دَلالةٌ قويَّةٌ على مكانةِ الصَّحابةِ ﷺ وعِظَمِ قَدْرِهم، ذلك أنَّ بيانَ اللهِ ذَكَرَ وازِعَيْن لهم يَمْنعانِهمْ عن مُواقعةِ الضَّلال، وهما: تلاوةُ القرآنِ وسماعُه، وصُحبتُهم لرسولِ اللهِ ﷺ في المَنْشَطِ والمَكْرَه والسَّفَرِ والحَضَر وفي جميع الأحوال، ولَئِنْ قضَى رسولُ اللهِ ﷺ إلى جِوارِ ربِّهِ سُبحانه وتعالى، فإنَّ القرآنَ الَّذي أَنْزلَه اللهُ عليه لم يَمْضِ، بل هو باقٍ بكلماتِه وآياتِه وهداياتِه وأحكامِه إلى قيامِ السَّاعة، وهذه دلائل قويَّةٌ لإسنادِ الآياتِ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الضَّمير، وفيه كذلكَ من المهابة بمقامِ الألوهيَّة ما فيه.

الشَّرطُ، والتَّحقيقُ، والتَّنوينُ والاستعارة، وأثرُ ذلكَ في توضيحِ المعنَى:

جُملةُ: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم﴾ الواو: إمَّا أن تكون عاطفة حكمًا جديدًا على ما تقدَّمها، وإمَّا أن تكون حاليَّة، أي: وكيف تكفرون باللهِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/524.

والحال أنَّ من يعتصم به؛ فقد هُدي إلى صراط مستقيم؟ والجملة شرطيَّة: فعلها الاعتصام، وجوابها الهداية.

والاعْتصامُ: التَّمسُّك، أي: مَنْ يتمسَّكْ ويَلتزِمْ بدينِ اللهِ؛ فلا يَخْشَى الضَّلال، فالاعْتصامُ هنا اسْتعارةٌ للتَّمسُّك، حيث شبَّه التَّمسُّك بالاعتصام بجامع الملازمة وعدم المفارقة، وحذف المُشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفي هذا تحفيزٌ لجماعةِ المؤمنين إلى يومِ الدِّين أنْ يَلتزموا دينَ اللهِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾الفاء: رابطة لجواب الشرط بمحذوف، أي: جزاؤه أو حكمه أنَّه قد هُدي إلى صراط مستقيم، و(فقد) تفيدُ التَّحقيق، فكأنَّ الهُدَى قد حَصَلَ، واسْتقرَّ في قلبِ صاحبِه بما أفادَه الفعلُ المبنيُّ للمجهول ﴿هُدِيَ﴾، وبناء الفعل للمجهول؛ لأنَّ الفاعل معروف، والدَّعوة هنا للانشغال بالفعل عن الفاعل.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوْحٍ بالطَّريقِ الصَّحيحِ الَّذي لا يَنحرفُ بمَنْ سلَكَهُ، وجاءَ تنكيرُ ﴿صِرَاطٍ﴾وتنوينُه؛ لِتفخيمِ شأنِه واسْتغراقِه لكلِّ صراطٍ وُصِفَ بهذا الوصف، وَوَصْفُه بالاسْتقامةِ للتَّصريح بالرَّدِّ على الَّذين يَبْغونَ له عِوَجًا[1].

وفي هذا الوصفِ ترغيبٌ وشَحْذٌ لِلْهِمَمِ على ضرورةِ الاسْتقامةِ والسَّيْرِ قُدُمًا في طريقِ الحقِّ، وعَدَمِ التَّعْويلِ على المثبِّطاتِ والمُحبِطات، وسواءٌ أكانتْ من داخلِ النَّفْسِ البشريَّة أمْ من خارجِها من شياطينِ الإنسِ والجنِّ.

بلاغة الاستعارة في ذكر الصِّراط المستقيم:

في التَّعبير عن الهداية للإيمان أو الإسلام بالصِّراط المستقيم استعارة تصريحيَّة، حيث حذف المُشبَّه: وهو الإسلام أو الإيمان، وذكر المشبَّه به: بجامع الإيصال إلى الحقِّ، وفي وصف هذا الحقِّ بالاستقامة استعارة أخرى بجامع انتفاء العوج في كليهما.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاعْتصام والتَّمسُّك:

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/525.

جاء في المعاجم عن التَّمسُّك: "إمساكُ الشَّيءِ: التَّعلُّقُ به وحفظُه، قالَ تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 65]، أي: يحفظُها.

واسْتَمْسَكتُ بالشَّيء؛ إذا تحرَّيتُ الإمساك، قالَ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزُّخرف: 43]، ويُقالُ: تَمَسَّكْتُ به، ومَسَكْتُ به، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: 10]، ويُقالُ: أَمْسَكْتُ عنه كذا، أي: منعتُه، قالَ تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الزُّمر: 38]"[1].

وبالنَّظرِ إلى ما تقدَّمَ في معنَى (الاعْتصام) يظهرُ أنَّه أوْلى بالسِّياق من معنَى (التَّمسُّك)؛ لأنَّ في (الاعْتصام) معنَى الالْتجاء، وتَهْيِيءِ شيءٍ يكونُ سببًا للاعْتصام، والامْتناعِ عن غيرِه.

وهذا هو الَّذي يُفيدُه سياق الآيةِ الكريمة، فالاعتصامُ باللهِ: يكونُ بالتزامِ دينِه وشريعتِه، والامْتناعِ عمَّا سِواهُما.

(1) الرَّاغب، المفردات: (مسك).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»